

اللغة العربية و سؤال الهوية

- دراسة في تداولية مظاهر التقليد الأدبي -

Arabic Language and The Question of Identity: A study of Pragmatic Manifestation of Literary Tradition

الأستاذة الدكتورة نصيرة غماري

المدرسة العليا الشيخ مبارك الميلي الجزائري بوزريعة - الجزائر

ghomarinac@yahoo.fr

الملخص

سعت هذه الورقة البحثية إلى التنبيه إلى مخاطر هجر اللسان العربي من قبل الناطقين به على صعيد التخاطب، والإقبال على التجنيس اللغوي دون استحضار مآلاته و نتائجها؛ ذلك أنه يؤدي لا محالة إلى التجنيس الثقافي بشكل لا واعٍ، عبر تغلغل الأنساق الثقافية الغربية التي لا تتسجم مع ثوابت الثقافة الإسلامية.

إن خصوصية اللغة العربية بالنسبة إلى أي مسلم معتدل - بعيدا عن أي أدلجة - ترجع إلى عربية القرآن بوصفها لغة دينية ذات بعد عقدي وقيمتها مستمدة من قداسته ومن ثم تستمد الأمة الإسلامية وحدتها من تقدير اللغة العربية إما تخاطبا للناطقين بها أو تعاطفا للناطقين بغيرها .

من هذا المنطلق، خلّص البحث من خلال دراسة نماذج من الأدب الجزائري في مرحلة الضعف، إلى أنّ الاهتمام بالهوية اللغوية للشعوب العربية هو اهتمام بالهوية الجماعية التي تتجسّد من خلال المنجزات الثقافية وفي مقدّمتها الإنتاج الأدبي بوصفه المجال الفسيح الذي يتشكّل فيه و به الوعي الجمعي لما يحتويه من تمثيلات ذهنية للعالم تعكس الانتماء الحضاري الإسلامي المتجاوز للثنائية العرقية الضيقة.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية، الهوية اللغوية، التجنيس اللغوي، الهوية الجماعية، تداولية، مظاهر التقليد الأدبي

تاريخ الاستلام: 2022/6/2

تاريخ القبول: 2022/7/31

Abstract:

This research aims to draw attention to the dangers of the abandonment of the Arabic language by native speakers at the level of communication, and the demand for linguistic naturalization without recalling its results; Indeed, this inevitably leads to a cultural naturalization unconsciously, through the penetration of Western cultural models that are incompatible with the constants of Islamic culture.

The peculiarity of the Arabic language for any moderate Muslim - far from any ideology - goes back to the Arabic of the Koran as a religious language with a confessional dimension and its value derives from its holiness, and therefore the Islamic nation derives its unity from appreciation of the Arabic language, either by speaking to its speakers or by sympathizing with non-speakers.

From this point of view, the research concluded, by studying examples of Algerian literature in a phase of weakness, that the interest in the linguistic identity of the Arab peoples is an interest in the collective identity that is embodied through cultural achievements, in the forefront of which is literary production as the vast field in which the collective consciousness of its content is formed, mental representations of the world that reflect the Islamic civilizational membership that transcends narrow ethnicity.

Keywords: Arabic language, linguistic identity, linguistic naturalization, collective identity, pragmatics, manifestations of literary tradition

مقدمة

لا شك أن من يمتلك التفوق المعرفي يمتلك سلطة الخطاب، ولا تفوق بدون الاعتزاز بالهوية الجماعية التي تتخذ من الهوية اللغوية وعاء لها، وكل من يزعم أن اللغة العربية أضحت غير قادرة على مواكبة اللغات التي تنعت بـ"الحية" لارتباطها بالعلوم الحديثة والرقمنة، مردود عليه بأن التاريخ أثبت قدرة اللغة العربية على استيعاب جميع العلوم التي أفرزتها الحضارات السابقة لها، ابتداء من الإغريقية بفعل الترجمة وتجاوزته إلى الإبداع العلمي بلسان عربي؛ بل إن المسلمين الأعاجم احتضنوا هذه اللغة، فكان حالها كحال الإنجليزية اليوم. هذه الحقيقة التاريخية التي لم تغب عن المنصفين من علماء الغرب عند تنبيههم إلى الخاصية التكاملية التي تقوم عليها الحضارات الإنسانية؛ فعلوم اليوم التي تعد التكنولوجيا أسمى منجزاتها، استندت - لتصل إلى ما هي عليه - إلى مجهودات حضارات الماضي و نناجها مهما كان جنس فاعليها ودياناتهم، لذا ندعو المشككين تأسيساً بالمؤرخ الأمريكي (1884 -1956) "جورج سارتون" مؤسس تاريخ العلوم إلى " أن نذكر أنه من منتصف القرن الثامن حتى أواخر القرن الحادي عشر، كانت الشعوب التي تتكلم العربية ومن امتزج بهم من يهود ونصارى، تتقدم موكب الإنسانية، وبفضلهم لم تظل العربية لغة القرآن المقدسة وحاملة كتاب الله وحسب، بل أصبحت لغة العلم المسكونية (المقصود منها في هذا السياق التفاهم والتسامح بين مختلف

الديانات) وحاملة لواء التقدم البشري. وكما أن أقصر طريق يسلكه شرقي الآن إلى المعرفة أن يلم بلغه من لغات الغرب الرئيسية، كذلك كانت العربية في خلال تلك القرون الأربعة الأولى المفتاح، وإن شئت فقل المفتاح الوحيد، إلى الثقافة التي ملكت ناصية الفكر" (سارتون: 1961: 167)؛ إذن فالمسألة تتعلق بالاعتزاز بالهوية الجماعية لتتمكّن الذات الأقل معرفة علمية من وعي نسبية الحضارة و خصوصيتها عن طريق أجراء مفهوم التحيز المعرفي للحدّ من مشروع مادية الحضارة الغربية التي لا تتسجم مع روحانية الحضارة الإسلامية المتجسّدة في لغتها ومن ثمّ القدرة على نقدها. وليس من قبيل الحشو أن نسوق شهادة ثانية لـ"سارتون" لاعتدالها وموضوعيتها؛ فالعزة التي لحقت اللغة العربية في عصرها الذهبي استمدتها من الدين الإسلامي من جهة وبقاء الحضارة الإسلامية محافظة على هويتها اللغوية العربية، على الرغم من التثاقف والتفاعل اللذين شهدتهما بفعل الانفتاح على حضارات الأمم التي شملتها الفتوحات الإسلامية، بل إنّ اللغة العربية أصبحت لسان الكثير من الشعوب التي أصبحت تحت الحكم الإسلامي، يقول: "إنّ الأمم الإسلامية قد تآلفت وظلّت منفصلة عن بقية الدنيا بفضل رابطتين من أقوى الروابط التي تقيّد الجماعات: الدين واللغة. فمن أوجب واجبات المسلم المثقف أن يقرأ القرآن وأن يقرأه بلسان عربي. وعلينا أن نقدر هذا الواجب الديني حقّ قدره، فإنّ العربية، -كانت لغة قَبَلية الصبغة ولا أكثر- قد أصبحت مسكونية. وهي إن كانت قد فقدت بعض أصالتها بعد القرن الحادي عشر الميلادي، فقد ظلّت كبيرة الشأن عالية المكانة، وهي ما تزال حتى اليوم من أوسع اللغات استعمالاً، وبمضي الزمن انفرط عنها كثير من اللهجات، على نفس الصورة التي انفرطت بها اللغة اللاتينية..، غير أنه بالرغم من هذا، فإن كلّ مسلم مثقف لا بدّ من أن يكون على علم بالعربية الفصحى ليقراً القرآن، والعربية المكتوبة.. فليس للكاتب العربي من مثل يحتذيه غير مثل واحد للبلاغة هو القرآن أولاً ثم كبار كتاب العصر الأول. وبفضل الوحدة، وحدة اللغة ووحدة العقيدة هاجرت الأفكار بسرعة مذهلة، وأشعت من "دار السلام" إلى أطراف المعمورة.. " (نفسه: 159)

تأسيساً على هذه المقدّمة، نعمل فيما يلي و نقادياً لخطاب التعميم والتجريد على الاستقادة من تجارب الماضي (وأخصّ هنا تاريخ الجزائر الثقافي)، بالارتداد إلى الوراء، لنجيب عن الإشكالية الآتية:

هل تقطن الغرب في حركاته التوسّعية إلى إجرائية الهوية اللغوية باعتبارها المنفذ إلى البنية السوسيو ثقافية للمجتمعات؟ ثم كيف حافظت الأمة الجزائرية على هويتها اللغوية والإسلامية في ظلّ تاريخها المظلم جراء ما تعرّضت له من حملات توسّعية متعدّدة الأعراق والديانات والألسن؟

وقبل بسط هذه القضايا البحثية، نعمل على صياغة تعريف للهوية اللغوية للوقوف على فاعليتها في ترسيخ القيم الحضارية الإسلامية ومقاومة الاستلاب الهوياتي.

1. تحديد المصطلحات

- مفهوم الهوية لغة

يقترَب مفهوم الهوية في المعاجم الغربية من مفهومها في مثيلاتها العربية؛ فمصطلح الهوية *Identité* يعرف بأنه خاصية ما هو متطابق أو متداخل حيث تتيح الخصائص المحددة لها إمكانية تجميع عدة أشياء أو ذوات تحت مفهوم واحد. ومن ثم تسمح برصد الاختلاف دون أي خلط ممكن لعنصر مع آخر.. (www.toupie.org.dictionnaire) ويحدّ المصطلح في المعاجم العربية بنسبته إلى ضمير الغائب " هو"، فصاحب التعريفات يعرفها بأنها " الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق" (الجرجاني: التعريفات) وهي بهذا تعني ماهية الشيء وصفاته الجوهرية .

- مفهوم الهوية اصطلاحاً

من منظور علم الاجتماع، تشكّل الهوية معالم مميزة ومشاركة تنتج عن معالم هوياتية *repères identitaires* واضحة ودائمة والتي عادة ما يتم تشكيلها في رموز *Symboles* من قبل الدولة بشكل رسمي لغرسها في الأفراد منذ التثنية الأولى أو من قبل المجموعة في حالة الأقليات المهمشة بشكل إرادي غير معتمد من قبل الدولة التي تنتمي إليها.

في حين تتحدّد مسألة الهوية من وجهة نظر أنثروبولوجية في إطار علاقة الأنا مع الآخر، فالذات لا يمكنها أن تجيب عن السؤال من أنا؟ إلا من خلال الإجابة عن السؤال : "من أنا بالنسبة إلى الآخر وما موقع الآخر بالنسبة إلي ؟ " وهو ما يجعل مفهوم الهوية ملازم لمفهوم الغيرية (Borbalan , 1998)؛ الأمر الذي يطرح إشكالية الحدود بين الهوية الفردية و الهوية الجماعية باعتبارها (أي الهوية الفردية) إدراك تموقع الذات إزاء الآخر.

- مفهوم الهوية اللغوية

يمكننا الإجابة عن سؤال الهوية اللغوية بالاعتماد على مفاهيم النظرية المعرفية بوصفها نسقا لسانيا معرفيا مشتركا بين المتكلمين، يستند إلى مجموعة من التمثلات الذهنية القبلية المخزنة في الذاكرة، إذ جزء كبير من تصوّراتنا استعاري، وهذا ما يفسّر مجازية اللغة وخصوصية نسقها الثقافي انطلاقاً من علاقة متكلميها بالعالم الذي ينتمون إليه وتجاربهم، ومن ثم تشكّل هذه التمثلات ما يسمى بالمعتقدات التي على أساسها تقوم الذات بقياس درجة المقبولية لعناصر "هويتها المعيارية في مقابل العناصر الجديدة الوافدة المكوّنة للهوية السيّالة" (لؤي علي خليل، فتنة العولمة وسؤال الهوية <https://dergipark.org.tr>).

وعلى هذا الأساس المعرفي المراعي للطبيعة الدينامية للغة، نتجاوز مع "لايكوف" التصور المستقل للغة الذي يرى فيها مجرد رموز في تركيب محايد منعزلة عن القصد والسياق والإدراك والعاطفة والذاكرة حيث "لا وجود لما يمكن نعتة بالكائن الحاسوبي، الكائن الذي يشبه ذهنه برنامج الحاسوب.. إنّ الناس الفعليين لهم أذهان متجسّدة تنشأ من أنسقتهم التصورية، وتتشكّل، وتعطي المعنى من أجساد بشرية حيّة. إنّ البنيات العصبية لأدمغتنا تنتج أنسقة تصوّرية وبنيات لغوية لا يمكن رصدها بصورة كافية بواسطة أنسقة صورية تقتصر على معالجة الرموز " (لايكوف، جونسون ، 2016 : 41).

وبناء على هذه التأسيسات المعرفية ، بوسعنا رصد المقتضيات المسجلة في بنية اللغة في خاصيتين:

- نسق المعتقدات وتتمثل في ما يعد حقيقة غير قابلة للنقاش عند المجتمع (الدين، الإيديولوجيا)؛
- نسق التمثلات الذهنية التي نبينها عن الأنا والآخر ضمن أنساق ثقافية معينة (الصورة التي نرسمها لمن يشاركنا مقوماتنا وللآخر) وهذا يسمى في الدراسات الثقافية بالمقولات والأنماط وغالبا ما تعكس التمثلات الذهنية لمكونات العالم والسلوك الاجتماعي، ومن الأمثلة التي نقدمها استثناسا كتاب الكناية والتعريض للشعالبي، إذ اجتهد مصنفه في جمع أشهر التعابير الكنائية والتعريضية في قالب استعاري التي اشتهرت عند العرب وهي تعطينا صورة عن النسق الثقافي للعرب عامة ورؤيتهم للعالم .

وفق هذا التصور، وفي إطار هذين النسقين اللذين يتم تحديد الآخر المختلف على أساسهما، تمنح الهوية اللغوية لمتكلميها "الشعور بالانتماء، ذلك أنه شعور أساسي في التعريف بالهوية الجماعية، لأن سياق التقييم الذي يمنح معنى للهوية هو سياق نوعية العلاقات التي تشمل جميع العلاقات العاطفية للفاعل الجماعي مع أبناء بيئته الاجتماعية، وعندما يختفي هذا السياق تتعرض الهوية للاضطرابات (Mucchielli :L'IDENTITÉ INDIVIDUELLE ET LES CONTEXTUALISATIONS DE SOI :105 -106)

و يجب التشديد على أن الاختلاف هنا بعيد كل البعد عما تروج له النزعات الأجناسية المتحيزة، إذ إن مردّه إلى التنوع الذي هو سنة كونية نبه الله تعالى إليها بأن جعلها من آياته المنظورة التي تشهد بتنوع اللغات وتعدد الأجناس، على الرغم من وحدة صفات الأصوات ومخارجها و وحدة النوع الإنساني في قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم :22] وقوله في سورة الحجرات من الآية : (13): ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ والتسليم بهذا التنوع يتطلب تقبلا للغير في إطار الاحترام المتبادل، كما يكون رفض الاختلاف سلوكا عنصريا وعدوانيا يخرج المتصف به من رحابة التحضر إلى ضيق الهمجية.

إن أهم وظيفة منوطة بالهوية اللغوية هي العمل على تذويب الهوية الفردية (الذاتية) في الهوية الجماعية (و القومية بشيء من التوسّع)، ذلك أن بناء الهوية الفردية يتم عبر الانصهار في قيم المجتمع التي تتأتى من اللغة لكونها مؤسسة اجتماعية ثقافية تؤمن وحدة المجتمع وانسجامه بما تحقّقه من تواصل؛ ذلك أن "الاندماج في حياة الشعوب، يعني، قبل كل شيء، وأكثر من كل شيء، الاندماج في اللغة " (الحصري، 1985: 57) وهذا ما يفسر اجتهاد المسلمين الأعاجم عند اعتناقهم الإسلام قديما وحديثا في تعلّم لغة القرآن لفهم معاني القرآن الكريم رغم توفّر الترجمة، وحرصهم قبل ذلك على امتلاك اسم إسلامي دون إكراه كإعلان صريح وواع على اندماجهم في الهوية الدينية الإسلامية.

ومن هذا المنظور، تكتسي الهوية اللغوية مظهرين :

- مظهرها داخليا تعبر به عن خصوصيتها البنوية و الأسلوبية التي تميزها عن اللغات لأخرى، لذا ينبغي على مستعمل اللغة إدراك حقيقة الارتباط بين أسلوب اللغة ونمطها التعبيري ودوره في تشكيل الذائقة الأدبية التي بدورها تعمل على تشكيل الهوية الجماعية، إذ العلاقة بينهما قائمة على التواضع.
- ومظهرها تداوليا تعبر من خلاله عن فاعليها الاجتماعيين الناطقين بها وعن هويتهم الجماعية (التاريخية والثقافية والدينية)؛ حيث لا يتحدد الأنا الجماعي إلا بمقابلته بالآخر، وهنا نكون أمام حتمية استحضار البعد التداولي لمفهوم "التحيزات المعرفية" من منظوره الإيجابي، إذ بها فقط تتحدد خصوصية الهوية الجماعية وملامحها المميزة لها و من ثم الاعتراف بتنوع الثقافات.

2. التجنيس اللغوي والهوية الجماعية

نظرا لأهمية اللغة في الكشف عن نمط التفكير لمستعمليها أولى الغرب منذ القرن السابع عشر عناية خاصة بالاستشراق، حيث تعود التأسيسات الأولى المرتبطة بأهدافه التوسعية إلى " عهد الملك فرنسوا الأول حيث فكر في " أهمية تعليم اللغات الشرقية وفي سنة 1669 تدعم ما فكر فيه بصدور قرار ملكي يقضي بأن يدرس سنّة طلاب فرنسيين اللغات الشرقية في أديرة الكبوشين في القسطنطينية وأزمير قبل الذهاب للخدمة في الشرق في بلدان شمال إفريقيا، وأطلق على هؤلاء الطلاب اسم شببية اللغة " (هلايلي، 2005: 149) ، وكان الهدف من هذا النشاط اللغوي هو اكتشاف الخصائص النفسية وأنماط التفكير المنعكسة في السلوك اللغوي للشعوب المستهدفة من خلال تعلم اللغة التركية بوصفها لغة السلطة العسكرية واللغة العربية بوصفها لسان الشعوب.. الهدف الذي ستتوجّه إليها الحملات الاستيطانية فيما بعد.

ولا يفوتنا لدواعي إجرائية، أن نشير إلى أنّ مصطلح الاستشراق أخذ في الانحصار إثر الحركات التوسعية الإمبريالية، "إذ استولى الأوروبيون مدفوعين بالنزعة الاستعمارية Colonialisme، على بلدان وراء البلدان العربية والإسلامية، في كل من إفريقيا وآسيا، وأدخلوا دراسات اللغات وحضارات كثيرة (شملت الهند، والصين، واليابان، وإندونيسيا الخ). وتوسع مفهوم الاستشراق بالتالي ليشمل لغات هذه البلدان وحضاراتها. مما دعا إلى نشأة مصطلح أضيق وأدق ضمن حركة الاستشراق الكبرى، وهو مصطلح (الاستعرب) Arabisation ، ويطلق على الدارس في نطاقه اسم (مستعرب Arabisant) أي من يهتم بدراسة اللسان العربي وحضارة العرب. ويطلق على جملة الدراسات التي يقوم بها جمهور الباحثين من المستعربين اسم (الدراسات العربية) " (المقداد، 1992 : 7).

وبالفعل، أتى هذا التخطيط الاستراتيجي أكله، حيث لم تخف صفحات التاريخ انتفاع نابليون بونابرت من هؤلاء التلاميذ في أواخر القرن الثامن عشر، حيث مهدوا لحملته ورافقوها لاحتلال مصر والشام (ومن بعدها التوسع الفرنسي في شمال إفريقيا) .

والقارئ للتاريخ الحديث، يقف على نجاعة ما خطط له؛ فقد كان سلاح اللغة من أهم الوسائل المعرفية بيد هؤلاء المستعربين لاحتلالهم الجزائر، حيث أدت ترجمة أهم المصنّفات العربية الشعبية إلى الفرنسية والكتب الفكرية الاجتماعية خاصة "تاريخ ابن خلدون" من قبل البارون دوسلان وإنشاء حلقات اللغة العربية (أو ما عرف بكراسي

اللغة العربية) في العقود الأولى من احتلال الجزائر ضمن أهداف التعليم الموجه، فمن جملة تدابير الفرنسيين للقضاء على المقاومة الشعبية في الجزائر - كما يرى المؤرخ "سعد الله" تعلم اللغة العربية الفصحى والدارجة ابتداء من 1836 " لقد كانت الإدارة تشجع على معرفة اللغة العربية للفرنسيين لا حباً فيها أو تقديراً لها، ولكن باعتبارها لغة وظيفية وأداة للحكم والسيطرة ومعرفة أفكار وتاريخ الجزائريين وما يدور بينهم في الأسواق والزوايا والبيوت، وما في كتب الفقه والأدب من نصوص وقوانين وقيم" (سعد الله، 1998، ج 3 : 312) .

و هكذا تم تسخير الاستعراب باتخاذ أداة لتوطيد نفوذ الغزاة في الدول المحتلة لتحقيق مآرب سياسية. وفي الجهة المقابلة تم التخطيط لإدماج الجزائريين في الثقافة الفرنسية عبر تسييس التعليم بتعليم الفرنسية للأطفال الجزائريين في مدارس مشتركة، لتكوين جيل يحتضن الثقافة الفرنسية و قيمها عبر بوابة اللغة. وقصد إثبات ما سقناه من مقدمات نمثل لهذه الاستراتيجية بحالة السياسي "فرحات عباس" أحد دعاة الإدماج في حقبة الاحتلال - حيث مثل النخبة السياسية التي أشربت الثقافة الفرنسية على الصعيد الهوياتي - ، ومن ثم نظروا إلى هويتهم الجماعية المتوارثة بعين الانتقاص والريبة، إلى حد الاستلاب ؛ ذلك أنه قدم خطاباً - يحتوي من المغالطات الشيء الكثير - صدح فيه بهوسه بالحضارة الأوروبية التي رأى فيها الخلاص، متناسياً أن المنظور الغربي يستثني الآخر المختلف من مقولات التحضر لأن عرقه الأبيض يتصدر التصنيف البشري في نظريات بعضهم العنصرية الممنهجة التي بررت حملاتهم الاستعمارية وممارساتهم الوحشية. وقد تقدمتها غداة احتلال الجزائر الإبادة الجماعية لقبائل برمتها. جاء في مقاله الصادم الموسوم " على هامش الوطنية: فرنسا هي أنا: " ..هل هناك جزائري مسلم يفكر بجد في بناء مستقبله على غبار الماضي؟ .. إذا كان 6 ملايين من المسلمين يعيشون على هذه الأرض التي أصبحت منذ 100 سنة فرنسية، يسكنون في أكواخ وحفاة عرا وبدون خبز. هذا العدد الهائل من الجائعين، نريد أن نبني مجتمعاً عصرياً بواسطة المدرسة.. نريد رفع المسلم إلى كرامة الإنسان ليكون فرنسياً، ..لن ننسى أبداً بدون تحرير الأهالي لا وجود لجزائر فرنسية دائمة. إن فرنسا هي أنا، ..مصالح فرنسا هي مصالحنا من اللحظة التي تكون فيها مصالحنا هي مصالح فرنسا.. إننا أبناء عالم جديد مكون من روح وجهد فرنسا، شعارنا إلى الأمام (نقلا عن عز الدين معزة، 2005: 109)

لئن كان هذا النص في بنيته السطحية يشكل خطاباً سياسياً يطالب فيه صاحبه بإلغاء القوانين الاستثنائية للأهالي وتجنيسهم جماعياً لتحقيق المساواة الكاملة بين السكان المحليين والأقدام السوداء وإلغاء التمييز العنصري لتخليصهم من الحرمان والفقر، فإن مقتضياته التداولية تشي بعمق الفجوة بينه وما ينشده الجزائري البسيط. لذا نراه راضياً بل مطالباً بإيها بقبول الانتساب إليها بالتبني في إطار سياسة الإدماج والتجنيس الجماعي كشرط للتطور. ففرنسا الاستعمارية في نظره تحمل الخلاص للشعوب التي احتلتها إذا ما أصلحت سياستها وعدلت في حكمها - تأسيساً بالحضارة الإسلامية التي أصبحت من أمجاد الماضي - ضمن حكم فيديريالي تبقى فيه الجزائر تابعة للأمة الفرنسية، مساوياً بهذا بين من احتل وطناً لنهب خيراته واستباحة أعراضه وبين من جاء فاتحاً لنشر دين يدعو إلى المساواة والعدل والأخوة بالفعل وليس بشعارات جوفاء تستثني الآخر المختلف من مبادئ ثورتها.

وهو في استراتيجيته السياسية هذه - وإن كانت مرحلية كما يرى بعض المؤرخين المتعاطفين معه - قد حاد عن الصراط المستقيم؛ إذ يفهم من تصريحه أنه وزمرته من الاندماجين لم ينشدوا الأرومة الغربية وما تتصلوا من ماضيهم إلا لأن نجم الحضارة العربية الإسلامية قد أفل، وإن عاد وهجه لعادوا، ولا يخفى ما في هذا المنطق البراغماتي من انتهازية ممنوعة.

وعلى العموم فقد أثار خطابه سخطا كبيرا عند السياسيين والعامّة. ومن أبلغ ما كتب ردّا على ادّعائه مقال ساخط ساخر للشيخ ابن باديس بعنوان "كلمة صريحة" جاء فيه: .. إن هؤلاء المتكلمين باسم المسلمين الجزائريين والذين يصوّرون الرأي العام الجزائري بهذه الصورة إنما هم مخطئون يصورون الأمور بغير صورتها... لا يا سادتي نقول لكم: إنكم من هذه الناحية لا تمثلوننا، ولا تتكلمون باسمنا، ولا تعبرون عن شعورنا وإحساسنا،..ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلال الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة، وعوائدها وأخلاقها... ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا، ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود ومعين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة" (طالبي، 2009، المجلد 2، ج 1: 307 - 309)

وعلى نقيض النص الأول، تقودنا المقتضيات التداولية في خطاب ابن باديس الإصلاحية إلى خاصية من خصائص الهوية الوطنية يفقدها كل مستلَب وهي أهمية القيم الروحية في حماية وحدة الأمة من محاولات الاختراق ومن ثم التلاشي.

أما الجانب الثاني الذي يتضمّنه، فيتلخّص في إبراده عناصر هذه الهوية التي تمنّعت عن الذوبان في ثقافة المحتل وهي: اللغة العربية والدين الإسلامي وهي مقومات لا تتجزأ، لأن إقصاء أحدها أو تغييرها هو تشويه للهوية الجماعية ومسح لها، وهي مسلمة أجملها الثعالبي في كتاب "فقه اللغة و سر العربية" منذ القرن الرابع الهجري بقوله: " فإنّ من أحبّ الله أحبّ رسوله المصطفى ﷺ العربي ومن أحبّ النبي العربي أحبّ العرب، ومن أحبّ العرب أحبّ اللغة العربية التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب ومن أحبّ العربية غني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها .. والإقبال على تفهمها من الديانة .. ، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد. " (الثعالبي، 1933 ، 2005 ، ط 1 : 2 - 3)

تأسيسا على ما تمّ بسطه أعلاه، أضحت الهوية اللغوية من أخطر أدوات الصراع التي استندت إليها الإدارة الاستعمارية في تخطيطاتها ؛ حيث راهنت عليها لتنفيذ مآربها المعلنة والمضمرة وفق سياسة " فرق تسد " التي تبعت من رمادها كلّما سمحت الفرصة، حيث " لا يشك عاقل في مدى التلازم الوثيق ، والارتباط المحكم بين اللغة والدين والأمة وهذا ما أدركه العلماء في القديم والحديث ؛ حيث ربطوا ربطا محكما بين اللغة العربية والإسلام؛ .. فكل قضية تثار ضد العربية فهي في الحقيقة ضد الإسلام" (بن الحمدة، 2005 : 445)؛ ومتى تم فصل عربية القرآن عن لغة التواصل تفتت الأمة لغياب الأنموذج الموحد.

و هو ما يعمل المشروع التغريبي على ترسيخه في أذهان الناشئة خصوصا بإقناعهم بقصور اللغة العربية عن مواكبة الفكر والتكنولوجيا؛ الأمر الذي أدى إلى تشكّل عقدة تفوق النموذج الغربي ومن ثمّ لغته، فنتج عن هذا الطرح الهوس بلغات الدول التي ارتبط تاريخها بالحركة الاستعمارية منذ مطلع القرن العشرين بدعوى جمود العربية ورجعيتها ، فسعوا إلى توظيف اللغة الثالثة في الكتابات الأدبية وترقية اللهجات المحلية لإحلالها محلّ العربية الرسمية (الأدبية)، وهو ما يفسّر من جهة أخرى مطالبات التنويريين العرب تحت مسمى تجديد الفكر الديني " الإسلامي " بتخليص اللغة العربية من شحنتها الإيمانية (الدوغمائية) عن طريق تحييدها لتكون لغة علم تتماشى مع النزعة العقلانية .

وبناء عليه، يمكن أن يتحوّل مفهوم الهوية اللغوية إلى جدل سياسي تستغله التيارات السياسية للدعاية لها وتنفيذ مقاصدها (أجندتها السياسية). وما حدث ويحدث كل يوم من تمزقات خطيرة في الدول العربية نعيش تداعياتها مكرهين بإحياء الاختلاف العرقي تارة أو الطائفي العقدي تارة وحتى القبلي - في حالة غياب الاختلافين - أحيانا أخرى.

3. تلازم الأدب و اللغة العربية

من المسلّم به أنّ عرّة العربية ارتبطت بفهم الخطاب الشرعي؛ مما أدى إلى تمجيد الأدب الصادر بلسانها المرتبط بعصور الاحتجاج اللغوي، ثم إبداع العلوم الشرعية من علم التجويد ومخارج الحروف وأصول الفقه التي أثّرت بدورها في تشكيل العلوم المعيارية للغة العربية من نحو وصرف وصناعة المعجم لفهم النص الديني تحقيقا للحمل الصحيح لمقاصد الشريعة. ولا يخفى ما لهذه الغايات الشرعية من دور في حفظ اللغة العربية وتطوّرها.

ويلاحظ من خلال قراءة دراسات المستعربين الذين فقهوا اللغة العربية تأكيدهم على قدرة العربية على استيعاب اللغات الأخرى إن على المستوى المعجمي أو المعرفي عند حديثهم عن حركة الترجمة في العصر العباسي والتفاعل الحضاري الذي نجم عنها، كقول المستشرق أندريه ميكيل في مقاله الموسوم "نظرة شاملة للأدب العربي" : " وتتحول العربية من كونها لغة جماعة أو أمة إلى كونها لغة حضارة ، وهي حين تواجه بالإيرانية التي يدير أبنائها الشؤون الإدارية للخلافة والتي تؤكد ثقافتها صلابتها العنيدة، أو بالإغريقية التي تعيد أزهارها التفتح من خلال المخطوطات التي تترجم مباشرة، أو من خلال وساطة السريانية، تؤكد العربية أنها جزء رئيسي في هذه الجوقة الموسيقية؛ فهي تجمع كنوزها وتدافع عنها، كنوز الجزيرة الأصلية شعرها وعقيدتها وتاريخها وهي تفعل أكثر من هذا، إنها تعير الجميع، عربا أو غير عرب، وسيلة تعبيرية رائعة متجددة متفتحة، عند الضرورة ، على حقول جديدة، وبالإجمال فقد أصبحت كما قلت واحدة من لغات العالم الكبرى " (درويش ، 1997 : 42)، وعلى هذا النحو، أخذت مثل هذه الدراسات حيزا واسعا من نشاطهم الفكري .

وما يثير الاهتمام من خلال قراءة بعض تلك المنجزات هو تنبّهم إلى الوظيفة البراغماتية لعلوم العربية، خاصة في مرحلة ما سمي بعصر الضعف بعد سقوط بغداد؛ حيث تجاوزت نظرتهم البحث عن مواطن الإبداع إلى تسجيل ملاحظات عن الدور الإيجابي للحركة التصنيفية -التجميعية لأمّهات كتب التراث التي حملت وزر تراجع الحركة الفكرية، فخدمت باستعادتها إنتاج الأسلاف الهوية الجماعية؛ حيث بدت المرحلة " كما لو أنّه كان يراد -فيما لو حدث اختفاء للثقافة العربية- الاحتفاظ بالكثير لكي نستخدمه الأجيال القادمة. وإلا فلماذا هذه المؤلفات الكثيرة ذات القيمة الهائلة على المستوى الإنساني. فبعد تعبيره (أي الأدب العربي) عن عصور المجد والمواجهات المقدّسة، يبرز

قدرة جديدة ومدهشة للعربية وهي القدرة هذه المرة على أن تواصل البقاء وتكون شاهداً على عصرها.. هذا الحوار بين العربية والعالم الذي يصمت أو يخفت خلال قرون عديدة يتجدد فجأة من خلال تاريخ النشاط ضد المستعمرين الذي تمثل حملة بونابارت افتتاحيته، ولم يكن النشاط فقط ضد العثمانيين أولاً وضد فرنسا والإنجليز ثانياً من أجل الحصول على الاستقلال الشكلي ثم السياسي والاقتصادي.. ولكنه في الحقيقة يسعى من وراء ذلك إلى إعادة اكتشاف الهوية أو بتعبير أبسط إعادة اكتشاف هوية جديدة تتفق مع التاريخ الحاضر والبعيد العميق " (نفسه : 48)

تمكن قيمة هذه الإشارات الاستشراقية للجانب المضيء لمظاهر التقليد في عصر الضعف السياسي للحضارة الإسلامية، في وظيفتها التداولية، حيث كشفت عن ارتباط شكل الأدب وأسلوبه المخصوص لأمة ما بنمط تفكير المجتمع الكلامي ومن ثم طريقة رؤيته للعالم التي تنعكس في ذائقته الفنية، وهو تلازم يفسر اعتزاز العرب والمنتسبين إليهم بسبب الرابط الديني بالموروث الأدبي العربي في مراحل الذهبية، فاتخذوه وسيلة للمقاومة الثقافية، حيث أسهم إسهاماً مباشراً في تثبيت الهوية الجماعية من جانب والمحافظة على الانتماء الثقافي العربي من جهة أخرى .

وحرصاً منا على استتطاق التاريخ، نقدم نماذج من الأدب الجزائري في مرحلة الخلافة العثمانية التي كانت الجزائر إيالة تابعة لها. وعمدنا في هذا المبحث مصنّفات ثلاثة نتناول مضامينها في المبحث الآتي:

4. الأجناس الأدبية ودورها في حفظ اللغة العربية

أ) كتاب عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لابن عمار أبي العباس سيدي أحمد

تجدر الإشارة إلى أنّ من بين العوامل التي حافظت على الهوية العربية للجزائريين كثرة المحفوظ لعيون الأدب العربي، ويظهر هذا من خلال معارضة الشعراء لأعمدة الأدب العربي وحرصهم على قياس أدواتهم الشعرية بما تخزّنه ذاكرتهم للنسج على المنوال ، فكثرت المقارنة بين شعراء المشرق والمغرب وغالباً ما يرجّح المترجم الناقد كفة الأديب المحلي على أئمة البيان المشهود لهم بحيازة قصب السبق .

ومن النصوص التي أثبتتها ابن عمار مستدلاً على براعة أصحابها إلحاقه الشاعر المانجلاتي بإمامي المديح البوصيري وابن الفارض مساوياً لهما في فن القول. منبهاً إلى انفراد أهل المغرب في المديح النبوي بنمط من التوشيح فريد في بنائه رائده الأديب الفقيه المانجلاتي بقوله: " وهذه الطريقة التي مدحنا بها النبي ﷺ عليها جرى أهل بلادنا، وأرباب طارفنا من البلاغة وتلادنا والشعر القريض عندنا في هذا الغرض ما أنزله وأقله في هذا العصر، والذي قبله ومجلى هذه الحلبة، ومقدّم الجماعة، وناقل الجعبة وإمام الصناعة.. عاشق الجنب المحمدي ومادحه بلا معارض، ومثلث طريقتي البوصيري وابن الفارض الشيخ أبو العباس المانجلاتي " (شقرون: <http://dspace.univ-tlemcen.dz> مخطوط : 168).

و هاهو يصف صديقه ابن علي بما نصّه: " وهذا إمام هو خاتمة الشعراء العظام بهذا الصفع، ليس لغليل الأدب بعده نفع وشعره الكثير، وهو على كثرته يفوق الدر النظيم والزهر النثير، ونثره على جودته قليل وسيفه فيه غير قليل، وله ديوان أشعار تغلو في عكاظ الأدب إذا رخصت الأسعار،.. عنّ لي أنقل هنا نبذة من ترجمته وإن كان فيها طول ليعلم أنّ هذا الرجل ممن كان يصول بالأدب ويطول، ويفاخر به المغرب وحقّ له بمثله أن يفخر، وليتحقّق صدق قول القائل

كم ترك الأول للأخير " (نفسه: 191 - 193) ، ليفوق الزبرقان و أبي تمام و المتنبي والمعتد بن عبّاد متنقلا بين العصور وخيرا ما فعل بترجمته له لأنّه لو تهاون لضاعت صفحة ناصعة من سجّل التاريخ الثقافي الأدبي الجزائري على قلة الصفحات .

ويقول مادحا صديقه ابن عليّ ومعربا في ذات الوقت عن الانتماء الثقافي للجزائر

فهو الذي طارت بلاغته إلى ال *** بيضاء والخضراء أيّ مطار

وأريت زندا عن بلاغة يعرب *** ويبــــــــــــان قسّ في دهى بشار

ما حاك منوال الفرزدق نسجها *** والكنديين بســــــــالف الإعصار

بين الجزائر أو دمشق نسبة *** حققتها بمنظّم و نثار (نفسه : 237 - 238)

حيث رأى أنه يفوق قس بن ساعدة وبشار بن برد والفرزدق وامرؤ القيس والمتنبي وأبي تمام، أما البيت الأخير فهو حجتنا في هذا الامتداد الحضاري حيث أصبحت اللغة العربية هي الجسر الذي حقّق الانتساب إلى العروبة، فكان التحاق المغرب بالمشرق انتسابا لغويا بليغا برّته لغة القرآن الكريم مع اعتزازه بخصوصيته الجغرافية.

ب (التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية لأبي راس الناصر

أما عن المصنّف الثاني "عجائب الأسفار"، فيرتبط بتاريخ الحاكم التركي "محمد بن بكداش" لإيالة الجزائر، إذ لما قرّر له أن يتولى الحكم كان مصدر إلهام للكثير من الأدباء الفقهاء، حيث كان عالما و متذوّقا للعربية (خلافا لسابقه ولاحقه)؛ فقرّب العلماء والأدباء من مجلسه وأغراهم بعطاياه على التدافع على بابيه، وكانت النتيجة أن تحرّكت دواعي الإنشاء وعرضوا عليه بضاعتهم، فتفاوتت من حيث القيمة الأدبية، و مما يدلّ على اهتمام الحاكم التركي بالأدب وتشكيله الاستثناء من بني جلدته طلبه من "أبي راس الناصر" نثر شعره لتعمّ الفائدة وينكشف المستغلق عليه، فصادف هوى في نفسه وهو اللغوي والمؤرخ والفقير.

وبهذا ترجع مناسبة تأليف الكتاب إلى رغبة الممدوح - الفاتح في فهم ما غمض من معاني قصيدة "نفيسة الجمان" و تفصيل مجملها لمبالغة صاحبها في الركون إلى الصنعة اللفظية المتكلّفة للسجع والازدواج التي كانت سمة العصر وعلامة على كفاءة الأديب، إذ يطلّنا الشاعر في شرحه على أنّه لم يتخطّ حدود التقليد، فجاءت "جارية على حسب ما يقتضيه المقام من المفاكهات أو ما يدلّ على أسلوب البلغاء في بعض المطارحات على السنّة المعهودة بين البلغاء والأدباء والطريقة المسلوكة بين الشعراء والخطباء، ولم أنكر ذلك إشاعة للمفاخر بل إذاعة لقول الشاعر "كم ترك الأول للأخر" .. (أبو راس، مخطوط ، 2005، ج 1 : 54) أما عن اختيار القافية فلا يخفي أنه كان من أهل الاتباع " وإنما اخترت في هذه المنظومة قافية السين أنّ أكثر أدباء الورى والأمراء يحبّونها " (نفسه ج 1 : 56) ، وهي شهادات كفيّة بأن ترصد العوامل التي أدّت إلى ضمور شعرية النصوص الأدبية عموما في تلك الحقبة وتبرّره، إذ تعدّ محاولة الخروج عن أساليب القول المتداول تطاولا على أهل الأدب الأوائل ومخالفة لمنهجهم. وقيمة الأديب يستمدّها من اتباعه لا ابتداعه وتقليده لا تجديده .

إنّ تولي الشاعر شرح قصيدته لإبراز معانيها المضمرّة ومقاصدها التي لم تجد متّسعا لتتكشف، مكّنه من بسط القول فأفاض بتحريره مؤلّفاً يحيلنا عنوانه إلى موروث ثقافي متنوع الفنون والعلوم والبلدان، فأبو راس يذهل قارئه بكم المعارف المتنقلة بين الحضارات والتخصّصات، وإن كان يكثر من إيراد الأخبار دون تدقيق كاستشهاده بالكرامات المنسوبة إلى رجال التصوّف والتوسّل بهم، وبهذا شكّل كتابه شاهداً ناطقاً بلسان حال النخبة العالمية التي جمعت ذاكرتها فنون وعلوم عصرها فأصاب بوسمه ذاك "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" فكانت بحق من أهمّ الوثائق التاريخية التي لا يمكن التغافل عنها خاصّة أنّه اتّبع نهج المؤرخ النسّاب من حيث واقعية الأحداث، إذ يعدّ وثيقة تاريخية شاهدة على هويّة وطن بغضّ النظر عن قيمتها الأدبية، يقول في شهادته على عصره : " ما كان يعوقني من ذلك ويمنعني في الخوض فيما هنالك، أتّي في زمن عطّلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسدّت مصادره وخلت دياره ومراسمه وعفت أطلاله ومعالمه لا سيما فن التاريخ والأدب وأخبار الأوائل والنسب قد طرحت في زوايا الهجران ونسجت عليها عناكب النسيان وأشرفت شمسها على الأفول واستوطن فحولها زوايا الخمول .. وأدامت بذلك حيرتي واتّصل إحجامي ووقفتي حتى سطعت لي أنوار الهداية فتحركت العزائم وتجذّت العناية بسبب ما أنعم الله به على المسلمين عامة وعلى أهل المغرب خاصة بفتح وهران بانجلاء أهل التثليث والأوثان على يد البايع سيدي محمد بن عثمان " (نفسه ج 1 : 53)

يدفعنا هذا الضابط التداولي إلى تعليل تشبّث مؤلّفي هذه الحقبة بمظاهر التقليد، بل والحرص على التتويه بها في ما يحبرونه من مؤلفات - على قلّتها - بأنّها نوع من التشبّث بالهوية العربية للحفاظ على الانتماء الحضاري في بعده اللغوي وما كثرة الاستشهادات بمصنّفات الأوائل البلاغية والنحوية والشرعية إلا لتعزيز هذا المقصد . فالظروف السياسية التي كانت تتخر في جسد القطر الجزائري لتتقص من أطرافه الساحلية بفعل الاحتلال الصليبي وتراجع اللغة العربية لعجمة حكّامها الأتراك كانت كفيلة للقضاء على لغة القرآن وتصبح لغة هجينة كما تشهد به كثير من نصوص ذلك العهد، لولا هذه الثلّة من العلماء، وما هو الشاعر نفسه يصف بأسلوب عربي مبين كثرة المثبطات التي تعيق الإبداع وتضعف العزائم في كلّ زمان.

ج (مقامة البوني الموسومة بـ "إعلام الأخبار بغرائب الوقائع والأخبار"):

نرصد في رسالة البوني إلى الحاكم فاتح ثغر وهران " الداي محمد بكداش " غرض الاستعطاف بعد أن ذاع صيته طمعا في عطاياه .

وقد أدرجها صاحبها في " فن المقامة " لقيامها على شكل المقامة التراثية؛ الأمر الذي دفع المؤرخ سعد الله إلى وصف قيمتها بما يلي " إنّ هذه المقامة التي كتبها البوني في فاتح عام 1106 هـ تضاف إلى تراثنا الأدبي في العهد العثماني الذي زعم البعض أنّه عهد خال من النشاط الفكري، وهي تعطينا صورة عن تطور هذا النوع من أنواع الأدب، أدب المقامة كما أنّها تسلط الضوء على صلة العلماء الجزائريين مع بعضهم ومع السلطة الحاكمة.. أما موضوعها فهو قديم جديد.. الاستنجاذ بذوي الجاه " (سعد الله: 1983: 91)

ويقوم بناء المقامة على أجزاء ثلاثة:

• مدخل وموضوع وخاتمة وما يهمننا في مقامنا هذا ما يخدم موضوعنا، إذ تأتي المقدمة مشخصة للوضع العام ومنه حالة اللغة العربية، الذي يسوقه في إطار الوقائع الغريبة التي تغنيه عن الخيال "وغرايتها" مستمدة من ابتعاد الراعي والرعية عن أخلاق الإسلام واستبعاد العلماء وتمكين الجهال الذين عاثوا في الدولة فسادا فكانوا بئس البطانة .

• الموضوع : وصف حالة الاستقرار ثم فقدانه بسبب الوشاية والحسد .

والاستعطاف بواسطة المدح موضوع أصيل في الأب العربي، وهنا تبرز أهمية اللغة العربية في الفعل الحجاجي التأثري باعتبار امتلاك ناصية اللغة وتوجيهها إلى من يقدّرها فعلا إنجازيا يتم به الخلاص، لهذا يستعرض في مقامته مخزونه الثقافي ليثبت من خلاله كفاءته الأدبية وتميّزه " ثم نادى منادي السرور وقال: أبشروا برفع سوء عنكم ودفع كلّ الشرور، وأيقنوا بنيل المطالب ومنافحة حسان ونجدة ابن أبي طالب .. عليكم بمن العزم سجيته والحزم سليقته وطوبيته والعلم رداؤه والحلم لواؤه، والأناة شأنه والكرم إيوانه والخوض في العلوم النافعة طبعه وديده، يعترف له بذلك ممارس العلم ومقتنه ولو رآه ابن عباس لقال ليس به باس أو إمامه أبو حنيفة لجعله له خليفة، لكونه معانق المجد وحليفته، أو الفخر الرازي لقال هو لي نعم الموازي يحصل به السرور للجديد ولا يدع ابن مالك يلتفت لعمر ولا لزيد، بل لو أبصره السعد لقال يا بشراي هذا غلام بغوامض المعاني والبيان علام . أو البدر العيني، لقال لأفدينه بعيني، أو الإمام الطيبي، لقال هذا معيني على التفسير وحبيبي، ذلك ثمرة قلبي ونور عيني، العلامة السرسور سيدي مصطفى العنابي ثم الجزيري الجيني .. صاحب جناب فسيح و لسان فصيح، كأنه في بداعاته سبحانه وفي براعته يعرب بن قحطان " (نفسه : 92)

• ثم الدخول في الموضوع وهو الاستعطاف قصد النوال .

• الخاتمة : تجمع الدعاء والصلاة على الرسول - صلى الله عليه وسلم -

ويتجلى البعد الهوياتي في هذا النص في المزاوجة بين ما هو عربي مشرقي وعربي مغربي جزائري حيث يتجلى بوضوح انصهار مكون اللغة في مكون الدين؛ فاللغة مرتبطة بالتفسير وعلوم البلاغة وما علماء الجزائر المستشهد بهم إلا امتداد لهذا البعد الإسلامي - العربي . وما عربية لسان الجزائر إلا لعربية القرآن والشرعية . ولا يخفى ارتباط هذه العناصر بالانتماء الحضاري؛ فالموضوع هو التهنية بالفتح والممدوح لم يستحق الثناء إلا لأنه محيي لأحكام الشريعة واللغة العربية.

وعلى هذا الأساس، لا يمكن أن ننصف المنجز الأدبي لهذا العصر وننزله المنزلة التي تليق به إلا إذا وضعناه في إطاره الثقافي اذي شهد تَلَفُّظُهُ، فنتمثل النص غصًا نابضا بالحياة .

انطلاقا من هذه الاعتبارات التاريخية التطبيقية، يتأكد لنا البعد التداولي لتلازم اللغة العربية والدين الإسلامي في حفظ الهوية الفردية ومن ثم ترسيخ الهوية الجماعية، وهو تأكيد نبّهت إليه الدراسة التي قام بها " جينسن " في كتابه "الإسلام الثوري" ملخصها أن الإنجليز والفرنسيين عندما تقاسما إرث الإمبراطورية العثمانية بعد انهيارها أجروا دراسة عن سبب قوة الفرد المسلم التي أدت إلى التوسع الإسلامي في العالم، فوجدوه كامنا في محصلته اللغوية الثرية التي يكتسبها من نظام التعليم التقليدي القائم على دور الكتاتيب والمساجد، حيث يتم - كما يشهد به العرف المتداول - تحفيظ الطفل

منذ صغره القرآن وبعدها يدرس ألفية ابن مالك المكوّنة من 1000 بيت المتضمنة كل قواعد اللغة العربية الفصحى ومتون الأحاديث والتفاسير.. ؛ فالمفردات القرآنية وحدها تبلغ زهاء 17500 كلمة، وهي تؤسس لفهم جل مفردات المعجم العربي (Jansen , 1978). وهي نتيجة تعلل سياسة الإدارة الاستعمارية لطمس الهوية الجماعية بواسطة إلغاء الكتاتيب في شمال إفريقيا، وما هذا الإلغاء للتحصيل اللغوي إلا سعي منها إلى إلغاء هويته الذاتية التي بها يحفظ لحمته واستقلاله .

الخاتمة

نخلص في ختام هذه الدراسة إلى أنّ المسلم مطالب بأن يعي أنّ اللغة العربية قبل أن تكون أداة تبليغية هي وسيلة للتماسك الاجتماعي والانسجام الثقافي، كما ينبغي أن يدرك فاعليتها في بناء الهوية المعيارية للأمة؛ ذلك أنه ليس من الحكمة اليوم أن نتغاضى عما نعانيه من عبء "الاستلاب الهوياتي" الذي مرّده إلى التجنيس اللغوي الطوعي لشبابنا جراء "فتنة العولمة" التي جعلت علاقته بلغته باردة و سطحية، إلى حدّ تداول بعض المثقنين غير آبهين ولا منزعين - ناهيك عن العامة - عبر صفات التواصل الاجتماعي عبارات جاهزة منمّقة نادرا ما تخلو من أخطاء لغوية إلى حدّ إثارة الاستغراب والشكوك.

ولئن استطاعت الشعوب العربية والإسلامية أن تحرّر أراضيها من أسر الكولونيالية، فإنّها لا زالت تعاني من آثاره؛ فالاستقلال الحقيقي هو استقلال هوياتي يبدأ بواجب الاعتزاز باللغة كشرط رئيس لاستعادة الثقة بالنفس، لأنّ صحة المقدمات تؤدي إلى صحة النتائج.

لقد باتت مواجهة الذات المسلمة بالتشوّهات التي لحقتها، تحديا حقيقيا يجب خوضه بإرادة وعزيمة لتجاوزه إلى مرحلة جديدة ، مرحلة استعادة الهوية الإسلامية النقية التي عزّ بها المسلم فساد خطابه بقاع العالم؛ ذلك أنّ من حقّ هذه اللغة على الناطقين بها أن تجمعهم بها علاقة عاطفية، فإذا ما استشعروا قيمتها بعدّها مكوّنا أصيلا من مكونات الهوية الذاتية، آمنوا الاستلاب الهوياتي وكان انتماءهم إلى الهوية الجماعية فعلا اجتماعيا واعيا .

قائمة المراجع العربية

القرآن الكريم

أبو القاسم سعد الله، تجارب في الرحلة والأدب، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983

أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة و سر العربية ، ، ت أحمد منير الدمشقي ، مطبعة السعداوي ، ط 1 ، 1933

أحمد درويش، الاستشراق الفرنسي والأدب العربي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1997

اريخ الجزائر الثقافي ، ج 3 ، 1830 – 1954، الغرب الإسلامي ط1، 1998

حفني هلايلي، المستشرقون الفرنسيون في خدمة الإدارة الاستعمارية بالجزائر (1830-1962)، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، العدد 7 ، جوان 2005

جورج سارتون، تاريخ العلم والإنسيّة الجديدة ، تر أسماعيل مظهر ، دار النهضة العربية، القاهرة ، 1961

جورج لايفوف، مارك جونسون: الفلسفة في الجسد، الذهن المتجسّد وتحديه للفكر الغربي، تر عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1، 2016

ساطع الحصري، ما هي القومية ؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2 ، 1985

الشريف الجرجاني، التعريفات، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ، ط3 2009

عبد الجليل شقرون، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أبي العباس سيدي أحمد - دراسة وتحقيق -

مخطوط ، رسالة دكتوراه <http://dspace.univ-tlemcen.dz>

عز الدين معزة، فرحات عباس ودوره في الحركة الوطنية ومرحلة الاستقلال، مخطوط، 1899 . 1985 مذكرة

ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، إشراف عبد الكريم بو صفصاف، جامعة منتوري قسنطينة ، 2005

عمّار طالبي، ابن باديس، حياته وآثاره المجلد 2، ج1، دار الأمة ، الجزائر 2009

لؤي علي خليل ، فتنة العولمة وسؤال الهوية (الهويات المعيارية والهويات السيالة) <https://dergipark.org.tr>

محمد بن إبراهيم بن الحمد، فقه اللغة مفهومه وقضاياها، ار ابن خزيمة ، ط 1، 2005

محمد بن أحمد أبو راس الناصر، عجائب الأسفار و لطائف الأخبار ، تح محمد غالم، ج 1 المركز الوطني للبحث في

الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية - وهران، الجزائر، 2005 ، <https://archive.org/details/Aja-ib.El-sfar>

محمود المقداد: تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، عالم المعرفة ع نوفمبر 1992

المراجع باللغة الأجنبية

Alex Mucchielli : L'Identité individuelle et les contextualisations de soi

Ferhat Abbas , éditoriale de l'entente Franco- musulmane N 24 du 27 février 193

Godfrey H. Jansen : *Militant Islam* 1979 , Harper & Row New York

Jean-Claude Ruano-Borbalan- *L'identite(s) : l'individu, le groupe, la société*, Ed Sciences

Humaines,(1998) <https://halldulivre.com>

<https://archive.org> > details > militant

<https://www.cairn.info> > revue-le-philosophe-2015-1...

<https://toupie.org>